زمن تأليف «الرسالة المدنية»
وأثره في نسبة القول بإثبات «المجاز» إلى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله

لا يخفى على الباحثين أهمية معرفة «**تواريخ المصنفات**» ومعرفة المتقدم منها والمتأخر، وما لها من أثر في تحرير المذاهب ونسبة الأقوال، ومن ذلك: **تحرير مذهب الشيخ -رحمه الله- في مسألة «المجاز»**.

فقد عُني الباحثون بتحرير مذهبه فيه وبيان موقفه منه، وتباينت آراؤهم في ذلك، ونُسب له في المسألة أقوال، وغلب التعويل على «**الرسالة المدنية**» في نسبة القول **بإثبات** «**المجاز**» إليه -رحمه الله-.

وعامة المثبتين للشيخ القولَ بالمجاز ينسبون له في المسألة قولين، ويذكرون أنه نفى المجاز أولًا، ثم أثبته آخرَ الأمر في «**الرسالة المدنية**»[1].

ولا يستقيم هذا إلا بكون «الرسالة المدنية» هي المتأخرة!

مما دعاني إلى النظر في تأريخها، وتلمس زمن تأليفها.

وفيما يلي خلاصة ما خرجت به، وبالله المستعان وعليه التكلان.

أولًا: «الرسالة المدنية»:

- أرسلت «**الرسالة المدنية**» إلى الشيخ شمس الدين، وهو أبوعبدالله محمد بن أحمد الدباهي الحنبلي، توفي في **دمشق** سنة (**٧١١هـ**).

وقد ذُكر في ترجمته أنه تنقل وارتحل ودخل الروم والجزيرة ومصر والشام والحجاز وجاور عشرة أعوام **ثم تحول إلى دمشق**. هكذا ذكر تلميذه الذهبي[2]، وجاء في الذيل نقلًا عن الذهبي أيضًا: «**وجاور بالحرمين بضع عشرة سنة... فلما لمعت له أنوار شيخنا** -يعني ابن تيمية- **وظفر بأضعاف تطلبه: ارتحل إلى دمشق بأهله واستوطنها**».

فقدومه لدمشق وصحبته للشيخ لا بد وأن يكون قبل (٧٠٥هـ) بمدة [كأقصى تقدير]؛ فقد سافر الشيخ في هذه السنة إلى مصر ومكث فيها إلى (٧١٢هـ)، أي بعد وفاة الدباهي.

ثم: مجاورته ليست هي آخر مراحل حياته؛ إذ اتفق الجميع على أنه قد استقر به المقام في دمشق وبها توفي، **وهذا يؤكد كون مجاورته قديمة**[3].

---

(1) وإن كان بعض النافين قد عكس هذه الدعوى؛ لصراحة المواضع الأخرى وإحكامها.

لكن الشأن هنا مع المثبتين؛ فإنهم الأكثر استدلالًا بالمدنية.

(2) وعبارة ابن رجب: «... **ثم استوطن دمشق وتوفي بها**».

(3) بل وفي كلام بعضهم ما قد يفيد كون مجاورته قديمة جدًا؛ فإنه قد ذُكر عنه أنه صحب الشيخ عبد الله كتيلة [الحربي] وسافر معه، والشيخ كتيلة توفي سنة (٦٨١هـ).

وحين أرسل الشيخ إليه رسالته المشهورة كان -أي الدباهي- في المدينة حينها كما هو معلوم، ولذا سميت بـ«**المدنية**».

فالخلاصة: أنها أرسلت إلى الدباهي ← وكان مجاورًا حينها ← وجواره قديم= فدل ذلك على تقدم زمن تأليفها والله أعلم.

وثمّ قرائن أخرى قد تشير إلى تقدمها أيضًا، منها:

- خلوها من الإحالات (الإحالة إلى مصنفاته الأخرى).

- أن في خاتمتها استخبار من الشيخ «**وإن كنتم تعرفون للمدينة كتابًا يتضمن أخبارها كما صنف أخبار مكة= فلعل تعرفونا به**».

وقد أحال الشيخ على كتاب «**أخبار المدينة**» لابن شبة (ت: ٢٦٢) ونقل منه في عدة مواضع من ردّه على الإخنائي، وهو مما صنفه أخيرًا[4].

ثانيًا: المصنفات الأخرى:

- من أبرز المواضع التي ناقش فيها الشيخ قضية المجاز:

أ- كتاب «**الإيمان الكبير**»، وهو متأخر عن التاريخ المقدر آنفًا، وقد ذكر ابن رجب وغيره أن كتاب الإيمان -وغيره من الدواوين الكبار- قد ألفه الشيخ حال إقامته بمصر[5]، أي ما بين (٧٠٥-٧١٢هـ) فإن كان في حال سجنه فهو ما بين (٧٠٥-٧٠٩هـ) وإن كان بعد السجن -وهو لا يزال بمصر- فهو ما بين (٧٠٩-٧١٢هـ).

ففي كل الأحوال يكون الكتاب متأخرًا عن «**الرسالة المدنية**». والله أعلم.

ب- «قاعدة في لفظ الحقيقة والمجاز، وفي العام إذا خُصّ هل يكون حقيقة أو مجازًا. والبحث مع السيف الآمدي في ذلك» [مجموع الفتاوى ٢٠/ ٤٠٠] وهي متأخرة عن التاريخ المقدر آنفًا، بل لعلها -والله أعلم- مما صنفه أخيرًا؛ فقد أحال في أثنائها على رسالة أخرى متأخرة، وذلك عند ذكره لصاحب مدين وأنه «**ليس هو شعيبا كما يظنه بعض الغالطين، بل علماء المسلمين من أهل السلف وأهل الكتاب يعرفون أنه ليس شعيبا! كما قد بسط في موضع آخر**»، وقد بسط الشيخ الكلام في ذلك في رسالة مفردة طبعت بعنوان «**رسالة في قصة شعيب عليه السلام**» في جامع الرسائل (١/ ٥٩).

---

(4) بل وأحال على كتاب «**أخبار المدينة**» لابن زبالة (ت: ١٩٩هـ) ونقل منه في ردّه على البكري، إلا أن نقله منه كان بواسطة والله أعلم.

(5) ولا بد من بيان هنا: في عبارته -في الذيل- نوع قلق، وقد راجعت فيها بعض الأصول الخطية للكتاب فوجدتها كذلك، وبتقويمها يتبين إن كان الكتاب -حقًا- داخلًا فيما ذكره من تآليف الشيخ بمصر -كما فهمه بعضهم-، أو هو مستثنى منها -كما تحتمله العبارة بعد التقويم-. والله أعلم. [وكونه مستثنى منها لا يعني شيئًا؛ لا في تقدمه ولا تأخره. **فتنبه**]

وفي خاتمة هذه الرسالة -«**رسالة في قصة شعيب عليه السلام**»- أحال على «**الجواب الصحيح**»[6].

وكتاب «**الجواب الصحيح**» مما صنف أخيرًا؛ فقد أحال فيه على: «**درء تعارض العقل والنقل**»، و«**الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**» وتصنيفه للدرء في (٧١٣-٧١٨هـ)[7].

وكتاب «**الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان**» متأخر عن «**درء تعارض العقل والنقل**»؛ فقد أحال عليه في (ص١٣٠).

فالخلاصة:

- كتاب «درء تعارض العقل والنقل» متأخر (٧١٣-٧١٨هـ)

← كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» متأخر عن «الدرء»

← «الجواب الصحيح» متأخر عن «الدرء» و«الفرقان»

← «رسالة في قصة شعيب عليه السلام» متأخرة عن «الجواب الصحيح»

← بحثه مع الآمدي متأخر عن «رسالة في قصة شعيب عليه السلام»

= فيكون بحثه مع الآمدي مما صنفه أخيرًا، فيكون متأخرًا عن «الرسالة المدنية». والله أعلم.

******

ختامًا: غرض هذه الورقة البحثُ في صحة الاستدلال بـ«**الرسالة المدنية**» وكونها ناسخةً لغيرها، لا تحريرُ مذهب الشيخ في المسألة، وإلا فإن ما جاء في «**الرسالة المدنية**» قد يوجه بتوجيهات أخرى، كأن يقال بأنه كان من باب التسليم الجدلي؛ إذ «**الرسالة المدنية**» -في حقيقتها-: حكاية لملخص مناظرة وقعت للشيخ... إلى غير ذلك من توجيهات. **لكن الغرض هنا هو ما ذُكر**. والله أعلم.

كتبه: عبد الله بن علي السليمان آل غيهب

---

(6) قال: «... وقد بسطنا ذلك في «**الرد على النصارى**» وبينا أن الحواريين لم يكونوا رسلا؛ فإن النصارى يزعمون أن الحواريين رسل الله مثل إبراهيم وموسى وقد يفضلونهم على إبراهيم وموسى وهذا كفر عند المسلمين وقد بينا ضلال النصارى في ذلك. آخره والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه».

(7) أما كونه بعد (٧١٢هـ) فقد ذَكر ابن قاضي الجبل فيما قرأه على الشيخ من تصنيفه: «كتاب «**درء تعارض العقل والنقل**» أربعة مجلدات، وقد **حضرت ابتداء سؤاله**...»، وهو من تلاميذه الدمشقيين، وأول لقائه بالشيخ -كما نص هو على ذلك- في دمشق سنة (٧١٢هـ) «**وذلك بعد وروده** [أي الشيخ] **من القاهرة بمدة يسيرة**»، -ويشاركه في هذا كثير من تلاميذ الشيخ الدمشقيين -كابن القيم-، وذلك أن قدوم الشيخ إلى دمشق كان في ذي القعدة (٧١٢هـ)-. فعلى أقل تقدير يكون قد فرغ من تأليفه في أوائل (٧١٣هـ).

وأما كونه قبل (٧١٩هـ) فقد ذُكر أن لكمال الدين ابن الشريشي اعتراض على الدرء، وابن الشريشي توفي في سلخ شوال سنة (٧١٨هـ) فعلى أقصى تقدير يكون قد اطلع على الدرء في سنة وفاته (٧١٨هـ) فور فراغ مصنفه منه، ثم كتب عليه اعتراضه.

فائدة: قوله «**وقد حضرت ابتداء سؤاله**...» يؤخذ منه سبب تأليفه للكتاب. لكن هل يفهم منه أنه كان جواب استفتاء أو أنه سئل أن يؤلف في هذه المسألة؟ يحتمل. الله أعلم.